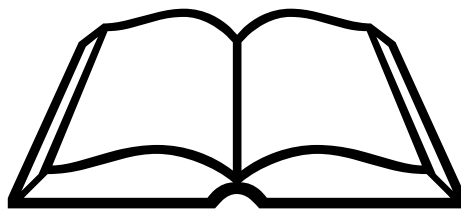


التحفة الزكية في شرح

المنظومة الحائية

نسخة ١٤٤٧ هـ

عبدالله بن محمد الجهني



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إله الأولين والآخرين ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، الطاهر الأمين ، صلّ اللهم عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وسلّم تسليماً مزيداً أما بعد :

فهذا شرح مختصر لطيف للمنظومة (الحائية) لابن أبي داود رحمه الله تعالى ، وهو نظم بديع ممتع ، أتى فيه المصنف على أهم الأصول العقدية لأهل السنة ، دون تطويل أو تفصيل .

وقبل الشروع في شرح هذا النظم الممتع يحسن أن نقف عدة وقفات :

أولاً : ترجمة المصنف :

هو أبو بكر عبدالله بن سليمان بن الأشعث السجستاني - وهو ابن أبي داود صاحب السنن المشهور - ولد بسجستان عام ٢٣٠ هـ ، ومات في بغداد عام ٣١٦ هـ .

قال عنه الإمام الذهبي : الإمام العلامة الحافظ ، شيخ بغداد أبو بكر السجستاني ، صاحب التصانيف... وكان من بحور العلم ، بحيث إن بعضهم فضله على أبيه... قال الحافظ أبو محمد الخلال : كان ابن أبي داود إمام أهل العراق ، ومن نصب له السلطان المنبر ، وقد كان في وقته بالعراق مشايخ أسند منه ، ولم يبلغوا في الآلة والإتقان ما بلغ هو... وعن ابن شاهين قال : أملى علينا ابن أبي داود سنين ، وما رأيت بيده كتاباً ، إنما كان يملئ حفظاً .

وقال الحاكم أبو عبد الله : سمعت أبا علي الحافظ ، سمعت ابن أبي داود يقول : حدثت من حفظي بأصبهان بستة وثلاثين ألفاً ، ألزمني الوهم فيها في سبعة أحاديث ، فلما انصرفت وجدت في كتابي خمسة منها على ما كنت حدثتهم به .

ثانياً : محتويات النظم :

تضم هذه المنظومة ثلاثة وثلاثين بيتاً في اعتقاد أهل السنة والرد على ما خالفه^(١) .

وقد ذكر فيها المصنف أصول عقيدة السلف ، وهي حسب ما ذكر :

وجوب التمسك بالكتاب والسنة ، ونبذ البدع .

الكلام عن مسألة خلق القرآن .

إثبات تجلي الله عز وجل لخلقه يوم القيامة .

إثبات صفة اليد .

إثبات نزول الله عز وجل للسماء الدنيا كل ليلة .

الكلام عن الخلفاء الأربعة ، وسائر الصحابة .

الكلام عن مسألة القدر .

الكلام عن بعض أحوال اليوم الآخر .

الكلام عن مسألة الإيمان .

(١) وهذا هو الموجود في أكثر النسخ ، وهو الذي اقتصر عليه تلاميذ الناظم ، كابن شاهين ، والآجري .

وأوصلها بعضهم إلى أربعين بيتاً ، ولا شك أنها من زيادات الرواة ، وقد ذكر السفاريني في شرحه أن ابن البنا زاد عليها ثلاثة أبيات ، فتبقى أربعة أبيات لا يُعلم من زادها .

ثالثاً : عناية أهل العلم بهذه المنظومة :

اعتنى أهل العلم بهذه المنظومة قديماً وحديثاً , وممن شرحها : ابن بطة , والآجري , والسفاريني , ولها عدة شروح معاصرة .
وسيكون هذا الشرح أو التعليق مختصراً لموافقة النظم , والتفصيل في هذه المسائل المذكورة موجود في (الدرر البهية في شرح
الواسطية) .

وستكون طريقة الشرح كالتالي : توضيح كلام الناظم , ثم شرح المسائل المذكورة بشكل مختصر , مع الحرص على بيان منهج
السلف في كل تلك المسائل , ثم ذكر أقوال المخالفين حسب الحاجة .

قال الإمام : أبو بكر عبدالله بن سليمان بن الأشعث السجستاني رحمه الله رحمة الأبرار :

تَمَسَّكَ بِحَبْلِ اللَّهِ وَاتَّبَعَ الْهُدَى وَلَا تَكُ بِدْعِيًّا لَعَلَّكَ تُفْلِحَ
وَدِنٌ بِكِتَابِ اللَّهِ وَالسُّنَنِ النَّبِيِّ أَتَتْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ تَنْجُو وَتَرْبِحُ

يُرشد الناظم في هذين البيتين إلى وجوب التمسك بالكتاب والسنة ، وترك الابتداع ، ويبين أن هذا الطريق هو الطريق الوحيد للنجاة والربح في الدارين .

فيقول رحمه الله تعالى : تمسك - أيها المسلم السني - بحبل الله بشدة - وحبل الله هو دينه - واتبع ما أنزله الله على رسوله ﷺ من الهدى ، كما قال تعالى (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق) ولا تَحَدَّ عن ذلك فتسلك سبيل أهل البدع الذين حادوا عن هذا الطريق القويم ، والصراط المستقيم .

وتعبد - أيها المسلم السني - لله بما جاء في كتابه ، وبما صح عن رسوله ﷺ ، فإنك إن فعلت ذلك نجوت من الضلال والشقاء الملازم لكل من حاد عن صراط الله تعالى ، كما قال عز وجل (فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً) ونجوت أيضاً من الشك والارتباب والحيرة والاضطراب الذي يصيب كل من حاد عن طريق الله القويم ، ومع نجاتك من هذه الأمور فإنك تظفر بمطلوبك ، وتحصل على مقصودك من العلم النافع ، والعمل الصالح من غير ارتباب ولا اضطراب ، وحينها تكون من الراجحين المفلحين^(١) .

وابتداء المصنف منظومته بهذه المسألة دليل على فقهه رحمه الله ، لأن كل الانحرافات العقدية والسلوكية ناتجة عن الانحراف عن الكتاب والسنة الصحيحة^(٢) .

ولذا فإن النبي ﷺ كان يُكثِرُ في خُطبه من قول : أما بعد ، فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هُدى محمد^(٣) ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة . رواه مسلم .

وقال ﷺ : وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به : كتاب الله . رواه مسلم .

ولأهمية هذا الأمر فإننا نجد أن عدداً من صنف كتباً في الاعتقاد يبدأ مصنفه بالكلام عن مصادر التلقي ، ووجوب الاقتصار على الكتاب والسنة ، وما أجمع عليه السلف .

وهذه المسألة من الأمور التي انفرد بها منهج السلف ومن سلك طريقهم من المتأخرين ، فلم يلتفتوا إلى العلوم الدخيلة على أهل الإسلام ، كعلم المنطق ، وعلم الفلسفة ، وعلم الكلام ، بل حقروا هذه العلوم ، وبينوا ما فيها من الاضطراب والتناقض ، وذكروا أن ما فيها من صواب فيما يتعلق بالشرعية فإنه موجودٌ في الشريعة بأخصر وأقوم مما هو مذكور في هذه العلوم ، مصداقاً لقوله تعالى (ولا يأتونك بمثلٍ إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً) .

(١) قال الزبيدي في تاج العروس : فليس في كلام العرب كله أجمع من لفظة (الفلاح) لخيري الدنيا والآخرة ، كما قاله أئمة اللسان .

(٢) منهج السلف قائم على العمل بكل ما ثبت عن النبي ﷺ ولا يفرقون بين السنة المتواترة والأحاد من جهة العمل ، بخلاف أهل البدع .

(٣) وفي رواية : وخير الهدى هدي محمد .

وقد أصيب العالم الإسلامي منذ وفاة النبي ﷺ إلى يومنا هذا بمصائب متنوعة ، وأعظم هذه المصائب مزاحمة هذه العلوم الدخيلة لعلم الشريعة ، ووقوع كثير من أهل العلم في شباك هذه العلوم ، وإحسانهم الظن بها ، مع أن أئمة هؤلاء العلماء قد حذروا منها غاية التحذير ، والله المستعان .

وأقوال الأئمة في ذم علم الكلام وأهل الكلام - فضلاً عن علم المنطق والفلسفة - لا تحصى كثرة ، ومن ذلك :
قول عبد الله بن المبارك : من تعاطى الكلام تزندق .

وقال الإمام الشافعي : والله لأن يُبتلى المرء بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك به ، خيرٌ من النظر في الكلام .

وقال الإمام أحمد بن حنبل : من تعاطى الكلام لم يفلح .

وقال رحمه الله : من أحب الكلام لم يخرج من قلبه ، ولا يؤول أمره إلى خير .

وقال أبو يوسف صاحب أبي حنيفة : من طلب الدين بالكلام تزندق .

وقال رحمه الله : العلم بالكلام جهل ، والجهل بالكلام هو العلم .

وقال ابن عبد البر : أجمع أهل العلم في جميع الأعصار والأمصار أن أهل الكلام أهل بدع وضلالات ، لا يعدون عند الجميع من طبقات العلماء .

وقال ابن تيمية رحمه الله عن المتكلمين : تجدهم أعظم الناس شكاً واضطراباً ، وأضعف الناس علماً و يقيناً... وإنما فضيلة أحدهم باقتداره على الاعتراض والقدح والجدل ، ومن المعلوم أن الاعتراض والقدح ليس بعلم ولا فيه منفعة .

وقال رحمه الله : تجد أهل الكلام أكثر الناس انتقالاً من قول إلى قول ، وجزماً بالقول في موضع ، وجزماً بنقيضه وتكفير قائله في موضع آخر ، وهذا دليل عدم اليقين .

وقال رحمه الله : ذمّ السلف والأئمة للكلام... لفساد معناه... ولاشتماله على معانٍ باطلةٍ ، مخالفة للكتاب والسنة ، ومخالفة للعقل الصريح .

وَقُلْ غَيْرُ مَخْلُوقٍ كَلَامٌ مَلِيكِنَا بِذَلِكَ دَانَ الْأَتْقِيَاءُ^(١) وَأَفْصَحُوا
وَلَا تَكُ فِي الْقُرْآنِ بِالْوَقْفِ قَائِلًا كَمَا قَالَ أَتْبَاعُ لِحْمِهِمْ وَأَسْجَحُوا^(٢)
وَلَا تَقُلِ الْقُرْآنُ خَلْقَ قِرَائَتِهِ^(٣) فَإِنَّ كَلَامَ اللَّهِ بِاللَّفْظِ يُوضَحُ

يتكلم الناظم في هذه الأبيات عن ثلاث مسائل عقدية حول القرآن وكلام الله تعالى ، وهي (القول بخلق القرآن ، بدعة الواقعة ، بدعة اللفظية) .

فيقول رحمه الله تعالى : قل - يا أيها المسلم السني - معتقداً بقلبك ، مصرحاً بلسانك : كلام الله صفة من صفاته ، غير مخلوق^(٤) ، والقرآن من كلام الله منزل غير مخلوق ، وأفصح بهذا القول ، وصرح به ، كما كان يصرح به ويفصح سلفك الصالحون . ولا تكُ من الشاكين المترددين الذين يقولون (القرآن منزل) ويقولون ، لا يقولون مخلوق ، ولا يقولون غير مخلوق ، فإن هؤلاء سلكوا مسلك الجهمية ، وطابت نفوسهم بهذا القول الباطل ، وصرحوا به ونشروه . ولا تكُ أيضاً ممن يقول (القرآن منزل غير مخلوق ، ولكن لفظي بالقرآن مخلوق) فإن هذا الكلام باطل فاسد ، لأن كلام الله تعالى إنما يظهر ويُفهم باللفظ .

ولعل الناظم ابتداءً منظومته بذكر مسألة (كلام الله) لأن هذه المسألة هي أول مسألة حصل فيها الإنكار في باب الصفات ، فقد أجمع أهل العلم على أن أول من أنكر الصفات الجعد بن درهم ، وأول ما أنكر من الصفات : صفة الكلام ، وصفة الخلة ، كما أن هذه الصفة هي أكثر صفة حصل فيها الخلاف بين أهل السنة وبين سائر طوائف الضلال .
والكلام : صفة ثابتة لله عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته ، وهو من الصفات الذاتية في أصله ، فالله عز وجل ما زال ولم يزل متكلاً ، وهو صفة فعلية باعتبار أفرادها ، فالله عز وجل يتكلم بما شاء ، متى شاء ، وقد أجمع السلف على هذا الأمر .
وعقيدتهم أن الله يتكلم بكلام حقيقي ، متى شاء ، كما شاء ، بما شاء ، بحرف ، وصوت مسموع ، لا يماثل أصوات المخلوقين .

والأدلة على ما ذهب إليه أهل السنة هو كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ .
فقولهم (إن الله يتكلم بكلام حقيقي) لآيات كثيرة ، أظهرها قوله تعالى (وكلم الله موسى تكليماً) فأكد بالمصدر ، والعرب لا تؤكد بالمصدر إلا إذا أرادت الحقيقة ، قال الفراء : إن الكلام إذا أكد بالمصدر ارتفع المجاز ، وثبتت الحقيقة .
وقولهم (بما شاء ، وكما شاء ، ومتى شاء) لأدلة كثيرة منها (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه) فالكلام كان بعد أن جاء للميقات .

(١) وفي نسخة : الأولياء .

(٢) أسجحوا : السجح : السهل والمستقيم .

وفي نسخة : وأسجحوا ، وفي أخرى : وصحجوا .

والمعنى : طابت نفوسهم بهذا القول ولانت له ، وسهل عليهم نشره والإعلان به .

(٣) وفي نسخة : قراءة . وفي نسخة أخرى : قرائته .

(٤) (المليك) من أسماء الله تعالى ، كما قال تعالى (في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر) وفي الحديث : ربُّ كل شيء ومليكه .

قال ابن تيمية : فالسلف والأئمة نصوا على أن الرب تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء , وكما شاء , كما نص على ذلك عبد الله بن المبارك , وأحمد بن حنبل , وغيرهم من أئمة الدين , وسلف المسلمين .

وقولهم (بحرف وصوت) لأن الكلام في لغة العرب ما اشتمل على حروف وأصوات .

جاء في البخاري : إن الله جلا وعلا ينادي **بصوت** يسمعه من بُعد كما يسمعه من قُرب .

وجاء عند مسلم أنه ﷺ لما نزلت عليه سورة الفاتحة , وأواخر سورة البقرة قال له جبريل : ما من **حرف** تقرؤه منها إلا أعطيته .

وقولهم (بكلام مسموع) لأن الأصل في الكلام أن يكون مسموعاً , ولأنه وردت عدة آيات في القرآن تنص على المناداة ,

وهي لا تكون إلا بصوت مسموع .

قال ابن تيمية : وقد أخبر الله تعالى في القرآن بندائه لعباده في أكثر من عشرة مواضع , والنداء لا يكون إلا صوتاً باتفاق أهل اللغة , وسائر الناس .

وجاء في البخاري : إن الله جلا وعلا ينادي بصوت يسمعه من بُعد كما يسمعه من قُرب .

وقولهم (لا يماثل أصوات المخلوقين) لقوله تعالى (ليس كمثله شيء) ولما جاء في البخاري (إن الله جلا وعلا ينادي بصوت يسمعه من بُعد كما يسمعه من قُرب) وهذا لا يكون في أصوات المخلوقين , لأن أصواتهم يضعف سماعها بالبعد عنهم .

والكلام في القرآن فرغ عن الكلام في صفة الكلام , لأن القرآن من كلام الله .

وعقيدة أهل السنة والجماعة : أن القرآن كلام الله المنزل على رسوله محمد ﷺ , منه بدأ , وإليه يعود .

فقولهم (كلام الله) للآيات الكثيرة الدالة على ذلك , ومنها قوله تعالى (حتى يسمع كلام الله) .

وقولهم (المنزل على رسوله ﷺ) للآيات الكثيرة , ومنها قوله تعالى (نزل به الروح الأمين على قلبك) .

وقولهم (منه بدأ) لأنه هو المتكلم به حقيقة , قال تعالى (ولكن حق القول مني) .

وقولهم (إليه يعود) في معنى ذلك وجهان :

أ. ما رواه حذيفة مرفوعاً : وليسرى على كتاب الله عز وجل في ليلة , فلا يبقى في الأرض منه آية . رواه ابن ماجه , والحاكم

وقال : صحيح على شرط مسلم , ووافقه الذهبي , وقال الألباني : وهو كما قال .

وما رواه ابن مسعود : لينزع القرآن من بين أظهركم , يسرى عليه ليلاً فيذهب من أجواف الرجال , فلا يبقى في الأرض منه

شيء . رواه الطبراني .

ب. أنه يعود إلى الله وصفاً , أي أنه لا يوصف به أحد سوى الله .

وكلا المعنيين صحيح , كما قال شيخنا , وقدم السعدي القول الثاني , وقال عنه : أولى .

وقال ابن تيمية : ولهذا قال السلف : القرآن كلام الله ليس بمخلوق , منه بدأ , قال أحمد وغيره : وإليه يعود , أي هو المتكلم به

, وقال : كلام الله من الله , ليس ببائن منه , أي لم يخلقه في غيره , فيكون مبتدأ منزلاً من ذلك المخلوق , بل هو منزل من الله ,

كما أخبر به , ومن الله بدأ , لا من المخلوق , فهو الذي تكلم به لخلقه .

وقال أيضاً : ومن المستفيض عن سفيان بن عيينة , عن عمرو بن دينار , وربما وقفه بعضهم على سفيان , والأول هو المشهور ,

قال : أدركت مشايخنا والناس منذ سبعين سنة يقولون : القرآن كلام الله غير مخلوق , منه بدأ , وإليه يعود .

ومشايخ عمرو : من لقي عمرو من الصحابة , والتابعين^(١) أ.هـ
ثم ذكر رحمه الله عدداً من الأئمة الذين قالوا بهذا القول .

هذا هو معتقد أهل السنة والجماعة في كلام الله تعالى وفي القرآن , وقد أجمعوا على هذه الاعتقاد , وخالفهم فيه كل طوائف الضلال , من الجهمية , والمعتزلة , والخوارج , والكلابية , والأشعرية , وغيرهم , والناظم رحمه الله ذكر هنا ثلاث مذاهب مخالفة في هذه المسألة العظيمة , ونحن نقتصر على ذكر هذه المذاهب , ونرجى الكلام عن المذاهب الأخرى عند شرح الواسطية إن شاء الله تعالى .

أولاً : مذهب الخلقية أو المخلوقية : وهم الذين قالوا : الله لا يتكلم , بل قالوا : يتمتع عليه الكلام , والكلام المضاف إليه إنما هو من باب إضافة المخلوق إلى خالقه , وصرحوا بالقول بخلق القرآن , وهؤلاء هم الجهمية والمعتزلة .
قال عمرو بن دينار : أدركت تسعة من أصحاب رسول الله يقولون : من قال (القرآن مخلوق) فهو كافر . ذكره اللالكائي , ونقل إجماع الصحابة على ذلك , وعقد باباً في إجماع التابعين على ذلك .
قال ابن تيمية : قال الإمام الحافظ أبو القاسم اللالكائي - وقد ذكر أقوال السلف والأئمة - بأن القرآن كلام الله غير مخلوق , وما ورد عنهم من تكفير من يقول ذلك . ثم قال : فهؤلاء خمسمائة وخمسون نفساً وأكثر , من التابعين , وأتباع التابعين , والأئمة المرضيين , سوى الصحابة الخيرين على اختلاف الأعصار , ومضي السنين والأعوام , وفيهم نحو من مائة إمام , ممن أخذ الناس بقولهم , وتدينوا بمذاهبهم , قال : ولو اشتغلت بنقل قول المحدثين لبلغت أسماءهم ألوفاً كثيرة , لكن اختصرت فنقلت عن هؤلاء عصرًا بعد عصر , لا ينكر عليهم منكر , ومن أنكر قولهم استتابوه , وأمروا بقتله أو نفيه أو صلبه , قال : ولا خلاف بين الأمة أن أول من قال القرآن مخلوق الجعد بن درهم في سني نيف وعشرين , ثم الجهم بن صفوان , فأما جعد فقتله خالد بن عبد الله القسري , وأما جهم فقتل بمرو في خلافة هشام بن عبد الملك أ.هـ
ومما يرد به على هؤلاء :

أ. قوله تعالى (ما نفدت كلمات الله) فدل أن كلامه غير مخلوق , لأن كل مخلوق ينفد .
ب. قوله ﷺ (أعوذ بكلمات الله) فدل أنها غير مخلوقة , لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك .
ج. أن الله ذم آلهة المشركين لعدم النطق في آيات عديدة منها (ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً) فعدم التكلم نقص .
د. قولهم : إن الله خلق كلاماً في الشجرة أو في الهواء ونحو ذلك , يلزم منه أن تكون الشجرة هي التي قالت لموسى (إني أنا ربك) .

قال يحيى بن سعيد : كيف يصنعون بهذه الآية (إني أنا الله) يكون مخلوقاً؟!
وقال عبدالله بن محمد بن عائشة : يستحيل في صفة الحكيم أن يخلق كلاماً يدعي الربوبية .

(١) قال البخاري في كتابه (خلق أفعال العباد) : حدثني الحكم بن محمد الطبري - كتبت عنه بمكة - قال : حدثنا سفيان بن عيينة قال : أدركت مشايخنا منذ سبعين سنة - منهم عمرو بن دينار - يقولون : القرآن كلام الله , وليس بمخلوق .

ثانياً : مذهب الواقفة : وهم الذين قالوا : القرآن كلام الله . وسكتوا , ولم يقولوا (غير مخلوق) .

وهؤلاء اشتد نكير السلف عليهم , لأنه من كتمان الحق , وعدهم الإمام أحمد من الجهمية , وهو ظاهر كلام الناظم هنا . قال الإمام أحمد : افتقرت الجهمية على فرق : فرقة قالوا : القرآن مخلوق , وفرقة قالوا : كلام الله وسكتت , وفرقة قالوا : لفظنا بالقرآن مخلوق .

وقال عبدالله بن الإمام أحمد : سمعت أبي يقول : من كان من أصحاب الحديث , أو من أصحاب الكلام فأمسك عن أن يقول (القرآن ليس بمخلوق) فهو جهمي .

وهؤلاء منهم من ظن أن الوقوف هو الأسلم , ومنهم من ادعى أن الأمر لم يتبين له , وهؤلاء يسمون (الشاكة) . وقد رد أئمة الإسلام على الطائفتين , ورأوا أنه لا مجال للشك , ولا للإمساك بعد أن بين العلماء , وأجمعوا أن القرآن منزل غير مخلوق , ورأوا أن هذا من التستر .

قال ابن قتيبة في كلام يدل على فطنة العالم : ليس في غرائز الناس احتمال الإمساك عن أمر في الدين قد انتشر هذا الانتشار , وظهر هذا الظهور الكلام لا يعارض بالسكوت , والشك لا يداوى بالوقوف , والبدعة لا تدفع إلا بالسنة , وإنما يقوى الباطل أن تبصره وتمسك عنه .

وقال ابن تيمية : وصارت فروع التجهم تجول في نفوس كثير من الناس , فقال بعض من كان معروفاً بالسنة والحديث (ولا نقول مخلوق , ولا غير مخلوق , بل نقف) وباطن أكثرهم موافق للمخلوقية , ولكن كان المؤمنون أشد رهبة في صدورهم من الله .
ثالثاً : مذهب اللفظية : وهم الذين يقولون : لفظي بالقرآن مخلوق , وأول من عرف عنه ذلك : الحسين بن علي الكرايسي الشافعي .

وقد اشتد إنكار الإمام أحمد عليه , وهجره لهذه المقولة , وهجره تلاميذ الإمام أحمد , وخف ميزانه عند أهل السنة لذلك^(١) . وقد جاء عن الربيع بن سليمان أنه سمع الشافعي يقول : من قال (لفظي بالقرآن مخلوق) أو (القرآن بلفظي مخلوق) فهو جهمي .

وإطلاق (لفظي بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق) ممنوع , لأنه مجمل , فاللفظ قد يراد به الملفوظ , وقد يراد به فعل العبد وهو صوته .

قال ابن تيمية : وكانت اللفظية الخلقية من أهل الحديث يقولون : نقول : إن ألفاظنا بالقرآن مخلوقة , وإن التلاوة غير المتلو , والقراءة غير المقروء , واللفظية المثبتة يقولون : نقول : إن ألفاظنا بالقرآن غير مخلوقة , والتلاوة هي المتلو , والقراءة هي المقروء . وأما المنصوص الصريح عن الإمام أحمد , وأعيان أصحابه , وسائر أئمة السنة والحديث فلا يقولون مخلوقة , ولا غير مخلوقة , ولا يقولون التلاوة هي المتلو مطلقاً , ولا غير المتلو مطلقاً , كما لا يقولون : الاسم هو المسمى ولا غير المسمى .

وذلك أن التلاوة والقراءة كاللفظ , قد يراد به مصدر تلا يتلو تلاوة , وقرأ يقرأ قراءة , ولفظ يلفظ لفظاً , ومسمى المصدر هو فعل العبد وحركاته , وهذا المراد باسم التلاوة , والقراءة , واللفظ مخلوق , وليس ذلك هو القول المسموع الذي هو المتلو , وقد يراد باللفظ الملفوظ , وبالتلاوة المتلو , وبالقراءة المقروء , وهو القول المسموع , وذلك هو المتلو , ومعلوم أن القرآن المتلو الذي

(١) في قوله تعالى (حتى يسمع كلام الله) دليل على أن المتلو المسموع هو كلام الله .

عن محمد بن مسلم أنه سأل الإمام أحمد عن اللفظية , فقال أحمد : قال الله عز وجل (حتى يسمع كلام الله) وقال (يسمعون كلام الله ثم يحرفونه) ممن كانوا يسمعون ؟.

يتلوه العبد , ويلفظ به غير مخلوق , وقد يراد بذلك مجموع الأمرين . فلا يجوز إطلاق الخلق على الجميع , ولا نفي الخلق عن الجميع أ.هـ

تنبيه : هذا الكلام إنما يقال في حق من قال (لفظي بالقرآن) وأما من قال (صوتي بالقرآن مخلوق) فقد أصاب , لأن الصوت صفة العبد وهو مخلوق , وما زال أهل العلم يقولون : الكلام كلام الباري , والصوت صوت القارئ .
قال ابن تيمية : وأما صوت العبد فهو مخلوق , وقد صرح أحمد وغيره بأن الصوت المسموع صوت العبد , ولم يقل أحمد قط : من قال صوتي بالقرآن مخلوق فهو جهمي , وإنما قال : من قال : لفظي بالقرآن . والفرق بين لفظ الكلام , وصوت المبلغ له فرق واضح .

وَقُلْ يَتَجَلَّى اللَّهُ لِلْخَلْقِ جَهْرَةً كَمَا الْبَدْرُ لَا يَخْفَى وَرَبُّكَ أَوْضَحُ
 وَلَيْسَ بِمَوْلُودٍ وَلَيْسَ بِوَالِدٍ وَلَيْسَ لَهُ شِبْهُ تَعَالَى الْمُسَبِّحُ
 وَقَدْ يُنْكِرُ الْجَهْمِيُّ هَذَا وَعِنْدَنَا بِمِصْدَاقِ مَا قُلْنَا حَدِيثٌ مُصَرِّحٌ (١)
 رَوَاهُ جَرِيرٌ عَنِ مَقَالِ مُحَمَّدٍ فَقُلْ مِثْلَ مَا قَدْ قَالَ فِي ذَاكَ تَنْجِحُ

يتكلم الناظم في هذه الأبيات عن مسألة تجلي الله لعباده في الآخرة ، ورؤيتهم له بأبصارهم .
 فيقول رحمه الله تعالى : **وقل أيضاً - أيها المسلم السني - بلسانك ، معتقداً بقلبك : إن الله يتجلى لعباده في الآخرة ، فيراه من شاء من عباده ، رؤية واضحة ، كما يُرى البدر ليس دونه سحاب .**
واعتقد - أيها المسلم السني - أن الله لا مثل له من خلقه ، كما أنه فارقه بكونه لم يلد ولم يولد .
وأما الجهمي فإنه يُنكر ذلك ، ويرى أن الرؤية ممتنعة ، ونحن عندنا أحاديث صحيحة صريحة في ثبوت ذلك ، من أشهرها حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه ، فخذ بهذا الحديث الثابت ، وطب نفساً به ، تكن من الناجحين .
وحديث جرير بن عبد الله الذي يقصده الناظم رحمه الله ، هو ما جاء في الصحيحين من قول جرير رضي الله عنه : كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال : أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في رؤيته .
وأحاديث الرؤية جاءت أيضاً عن أبي هريرة ، وجابر ، وأبي موسى ، وجابر ، وغيرهم ، وهي أحاديث متواترة .
وتجلي الله خلقه ، ورؤيتهم له في الآخرة ثابت بالآيات والأحاديث الصحاح ، وأجمع عليه أهل السنة والجماعة ، خلافاً للجهمية ، والمعتزلة ، والخوارج المتأخرين .
وقد نقل الإجماع غير واحد من أهل العلم ، منهم ابن بطة ، واللالكائي ، وابن تيمية ، وابن القيم .
قال أبو داود : سمعت الإمام أحمد يقول : من قال : إن الله لا يُرى في الآخرة فهو كافر .
وقال ابن خزيمة : من أنكر رؤية المؤمنين خالقهم يوم المعاد ، فليسوا بمؤمن عند المؤمنين .
وقال ابن القيم في النونية :

ويروونه سبحانه من فوقهم نظر العيان كما يُرى القمران
 هذا تواتر عن رسول الله لم ينكره إلا فاسد الإيمان

(١) وفي نسخة : حديث مصحح .
 ولا تعارض ، فالحديث صحيح وصريح .

وهذا التجلي يكون في عرصات القيامة , ويكون أيضاً في الجنة .

وقد أجمع أهل السنة والجماعة على أن المؤمنين يرون ربهم في الجنة , كما دلت على ذلك أدلة كثيرة , منها قوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) وقوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وقد جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ فسر الزيادة بأنها النظر إلى وجه الله تعالى في الجنة .

وقال ﷺ : إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا , ألم تدخلنا الجنة , وتنجنا من النار . قال : فيكشف الحجاب , فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل . ثم تلى رسول الله ﷺ هذه الآية (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) .

قال ابن كثير : قد ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث , لا يمكن دفعها ولا منعها .

وأجمع أهل السنة أيضاً على أن المؤمنين يرون ربهم في عرصات يوم القيامة , كما جاء في الصحيحين : إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون هذا القمر , لا تضامون في رؤيته .

واختلفوا في رؤية الكفار له في العرصات على ثلاثة أقوال :

- أ. جميع أهل الموقف يرون الله , المؤمن , والمنافق , والكافر . واختار هذا القول ابن القيم في حادي الأرواح .
- ب. الرؤية خاصة بالمؤمنين والمنافقين دون الكفار . واختار هذا القول ابن خزيمة .
- ج. الرؤية خاصة بالمؤمنين فقط .

ويدل عليه حديث ابن مسعود في مسند أحمد : أن الناس في أرض المحشر ينصرف بالكفار , وأهل النفاق إلى نهايتهم , فلا يبقى إلا المؤمنون فيتجلى الله عز وجل لهم . قال ابن تيمية : إسناده جيد .

قال ابن تيمية : وهذا قول أكثر العلماء المتأخرين , وعليه يدل عموم كلام المتقدمين , وعليه جمهور أصحاب الإمام أحمد وغيرهم .

وأما الجهمية والمعتزلة فنفاوا رؤية الله في الآخرة بناءً على نفيهم الجهة عن الله ، لأن المرئي يجب أن يكون في جهة من الرائي ، وما دامت الجهة مستحيلة عندهم - وهي شرط في الرؤية - فالرؤية كذلك مستحيلة . وكذلك زعموا أنه لو كان يُرى للزم أن يكون جسماً .

واحتجوا على مذهبهم بقول الله تعالى (لا تدركه الأبصار) وبقوله تعالى (لن تراني) وقالوا : (لن) تفيد التأييد . **والرد عليهم أن نقول** : أما قوله تعالى (لا تدركه الأبصار) فنفي الإدراك لا يستلزم نفي الرؤية ، فالمراد أن الأبصار تراه لكن لا تحيط به ، كما أن العقول تعلمه ولا تحيط به علماً ، لأن الإدراك هو الرؤية على جهة الإحاطة ، فالإدراك رؤية خاصة ، ونفي الخاص لا يستلزم نفي مطلق الرؤية ، بل يثبت ويؤكد . وهذا الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية ، قال ابن عباس (لا تدركه الأبصار) لا تحيط به . وقال قتادة : هو أعظم من أن تدركه الأبصار .

وقال تعالى عن قوم موسى (إنا لمدركون) ولم يكونوا يقصدون (إنا لمريئون) وقال موسى (كلا) لم يرد نفي الرؤية . فالإدراك والرؤية كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه . أفاده ابن القيم في حادي الأرواح . وقال ابن القيم : ولذلك قال ابن عباس لمن سأله وأورد عليه (لا تدركه الأبصار) فقال : أأست ترى السماء ؟ قال : بلى . قال : أفتردكها ؟ قال : لا . قال : فالله تعالى أعظم وأجل .

وأما قوله تعالى (لن تراني) ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني) وقولهم (لن) تفيد التأييد . فهذا كذب على اللغة ، فقد قال تعالى عن الكفار (ولن يتمنوه أبداً) أي : الموت ، ثم قال (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك) فأخبر عن تمنيمهم له وهم في النار .

فيكون معنى (لن تراني) يعني في الدنيا ، ولو كانت الرؤية ممتنعة لقال : إني لا أرى ، ولا يجوز رؤيتي ، ولست بمرئي ، ونحو ذلك .

قال ابن مالك في الكافية : ومن رأى النفي بلن مؤبداً فقوله أردد وسواه فأعضداً ومما يدل على ذلك أن موسى عليه السلام كان طلبه في الدنيا ، فكان الجواب على السؤال ، وذلك أن الحال لا تستطيع تحمل رؤية الله عز وجل ، وقد قال ﷺ : حجاب النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه . وأما قولهم : إن إثبات الرؤية يستلزم أن يكون في جهة ، أو يستلزم أن يكون جسماً ... فهذا فيه قدح في موسى عليه السلام ، لأن سؤاله دائر بين الجهل بما يجب لله ، ويستحيل في حقه ، أو الاعتداء في دعائه حين طلب من الله ما لا يليق به إن كان عالماً بأن ذلك مستحيل في حق الله ، وحينها يكون أولئك النافون أعلم من موسى فيما يجب لله ويستحيل في حقه !! .

وأما الأشاعرة فأثبتوا الرؤية بالدليل العقلي ، لكنهم حاروا في تفسيرها بناءً على أنهم ينكرون (الجهة) ويقولون : الله موجود لا في جهة ، ولذا قالوا هنا : يُرى لا في جهة ! وهذا من سوءات المذهب الأشعري ، ولهم أقوال أخرى نذكرها في شرح الواسطية إن شاء الله تعالى .

وَقَدْ يُنْكِرُ الْجَهْمِيُّ أَيْضاً يَمِينَهُ وَكَلْتَا يَدَيْهِ بِالْفَوَاضِلِ تَنْفُحٌ^(١)

يريد الناظم في هذا البيت إثبات صفة (اليدين) لله تعالى، والرد على من أنكر ذلك بنسبتهم إلى التجهم .
 فيقول رحمه الله تعالى : الجهمي الصِّرف ومن سلك مسلكه كما أنهم أنكروا كلام الله تعالى ، وأنكروا تجليه لعباده ورؤيتهم له سبحانه ، كذلك هم ينكرون اليد لله تعالى ، مع أنه سبحانه له يدان تفيضان بالعطاء الكثير ليل نهار .
 قال تعالى (بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء) وفي حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : قال الله عز وجل : يدُ الله ملائ لا تغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار ، وقال : أرايتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض ، فإنه لم يغيض ما في يده . متفق عليه .
 ومعنى (لا تغيضها) لا تنقصها ، ومعنى (سحاء) أي : دائمة العطاء .
 وفي صحيح مسلم من حديث أبي ذر المشهور يقول تعالى : يا عبادي لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني ، فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المحيط إذا دخل البحر .
 وقد أجمع أهل السنة والجماعة على إثبات (اليدين) لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته .
 يقول ابن تيمية : فلما قالت اليهود (يد الله مغولة) وأرادوا بذلك أنه بخيل ، كذبهم الله في ذلك ، وبين أنه جواد ماجد ، وإثبات اليدين له موجود في التوراة ، وسائر النبوات كما هو موجود في القرآن ، فلم يكن في هذا شيء يخالف ما جاءت به الرسل ، ولا ما يناقض العقل ، وقد قال تعالى لإبليس (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي) .
 وذكر ابن القيم أن لفظ (اليد) في الكتاب والسنة ، وكلام الصحابة والتابعين ورد في أكثر من مائة موضع ، وروداً متنوعاً متصرفاً فيه ، مقروناً بما يدل على أنها يد حقيقة ، من الإمساك ، والطي ، والقبض ، والبسط ، والنضح باليد ، والخلق باليدين ، والمباشرة بهما ، وكتب التوراة بيده ، وغرس جنة عدن بيده أ.هـ
 وقد وردت عدة نصوص تدل على أنهما يدان ، كما قال تعالى (بل يدها مبسوطتان) وقال تعالى لإبليس (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي) وقال تعالى (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) جاء تفسير ذلك في حديث ابن عمر عند مسلم قال : قال رسول الله ﷺ : يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ، أين المتكبرون ، أين المتكبرون ، أين الجبارون ، أين المتكبرون ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ، أين المتكبرون ، أين المتكبرون .
 وعند مسلم أيضاً : وكلتا يدي ربي يمين .
 وأهل السنة أخذوا بظاهر هذه النصوص فلم يختلفوا في إثبات اليدين لله ، ولم يختلفوا في أنهما في العطاء سواء ، ولم يختلفوا في تسمية إحدى اليدين بـ (اليمين) وإنما اختلفوا في تسمية اليد الأخرى بـ (الشمال) والأقرب أنه لا بأس بهذه التسمية لورودها في صحيح مسلم ، وأما قوله ﷺ (وكلتا يدي ربي يمين) فليس المراد تسمية كلتا اليدين يميناً ، بل المراد أنهما في اليُمن والعطاء سواء ، كما في حديث : كلتا يدي ربي يمين مباركة . رواه الترمذي .

(١) النفع : الإعطاء .

وفي بعض النسخ : تنضح .

وقد اتفقت طوائف التعطيل على إنكار هذه الصفة , وسائر الصفات الخيرية (الوجه , العين , والكف , والأصابع , والرجل , والساق) بناء على دليل التركيب , أو أن إثبات ذلك يلزم منه الجسمية , أو غير ذلك من الهراء الساقط .
ويأتي إن شاء الله عند شرح (الواسطية) الرد على هذه الطوائف .

وَقُلْ يَنْزِلُ الْجَبَّارُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ
إِلَى طَبَقِ الدُّنْيَا يَمُنُّ بِفَضْلِهِ
بِأَكَيْفَ جَلَّ الْوَاحِدُ الْمُتَمَدِّحُ
فَتُنْفَرِحُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَتُفْتَحُ
وَمُسْتَمْنَحٌ خَيْرًا وَرِزْقًا فَيَمْنَحُ^(١)
رَوَى ذَاكَ قَوْمٌ لَا يَرُدُّ حَدِيثَهُمْ
أَلَا حَابَ قَوْمٍ كَذَّبُوهُمْ وَقَبَّحُوا

يتكلم الناظم في هذه الأبيات عن صفة (النزول) لله تعالى .

فيقول رحمه الله تعالى : **وقل أيضاً - أيها المسلم السني - بلسانك ، معتقداً بقلبك : ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة ، نزولاً يليق بجلاله وعظمته ، لا يشبه نزول سائر المخلوقات ، فيقول : ألا من مستغفر فأغفر له ، ألا من سائل فأعطيه سؤله ، وهذا الأمر ثابت ثبوتاً لا مرية فيه ، رواه الأثبات الثقات ، فتعساً لمن خالفهم ورد ما هم عليه .**

وقوله هنا (بلا كيف) يقصد بلا كيف معلوم لنا ، وقوله (إلى طبق الدنيا) يقصد السماء الدنيا ، كما ثبت ذلك في الحديث ، وقوله (طبق) موافقة لقوله تعالى (سبع سموات طباقاً) لأن كل سماء مطبقة ومحيطة بما تحتها ، وقوله (فتفرج أبواب السماء) ربما يقصد أن أبواب السماء تفرج بالعطايا والهبات ، وربما يقصد أنها تفرج حقيقة كما جاء عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : **إذا كان ثلث الليل الباقي يهبط الله عز وجل إلى السماء الدنيا ، ثم تفتح أبواب السماء ، ثم ييسط يده فيقول : هل من سائل يعطى سؤله ، فلا يزال كذلك حتى يطلع الفجر .**

والحديث المروي في نزول الرب كل ليلة رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : **ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا ، حين يبقى ثلث الليل الآخر ، يقول : من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له .** متفق عليه .

وهذا الحديث مروى عن ثمانية وعشرين صحابياً ، كما قال ابن القيم ، فقد جمع بين الغاية في الصحة ، والغاية في صريح الدلالة . وقد أجمع أهل السنة والجماعة على إثبات هذه الصفة ، وصانوا أفكارهم وألستهم عن التكلفات التي يوردها أهل البدع ، فنزول الله عز وجل كسائر صفاته ، نزولاً يليق بجلاله ، لا يشبه نزول المخلوقين ، ولا يلزم عليه ما يلزم على نزول المخلوق ، وهذه المخلوقات تختلف صفة نزولها كل بحسبه .

قال ابن تيمية : **وهو منزه أن يكون نزوله كنزول المخلوقين وحركتهم وانتقالهم وزواهم مطلقاً ، لا نزول الأدميين ولا غيرهم ، فالمخلوق إذا نزل من علو إلى سفلى زال وصفه بالعلو ، وتبدل إلى وصفه بالسفول ، وصار غيره أعلى منه ، والرب تعالى لا يكون شيء أعلى منه قط ، بل هو العلي الأعلى ، ولا يزال هو العلي الأعلى ، مع أنه يقرب إلى عباده ، ويدنو منهم ، وينزل إلى حيث شاء ، ويأتي كما شاء ، وهو في ذلك العلي الأعلى ، الكبير المتعالي ، علي في دنوه ، قريب في علوه ، فهذا وإن لم يتصف به غيره فلعجز المخلوق أن يجمع بين هذا وهذا ، كما يعجز أن يكون هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن .**

وقال أيضاً : **فالرب سبحانه إذا وصفه رسوله بأنه ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة ، وأنه يدنو عشية عرفة إلى الحجاج ، وأنه كلم موسى بالوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ، وأنه استوى إلى السماء وهي دخان ، فقال لها وللأرض (اثني طوعاً أو كرهاً**

(لم يلزم من ذلك أن تكون هذه الأفعال من جنس ما نشاهده من نزول هذه الأعيان المشهودة حتى يقال : ذلك يستلزم تفرغ مكان وشغل مكان , فإن نزول الروح وصعودها لا يستلزم ذلك فكيف برب العالمين .

وقال قبل ذلك : فإن الروح التي هي بعض عبيده توصف بأنها تعرج إذا نام الإنسان , وتسجد تحت العرش , وهي مع هذا في بدن صاحبها لم تفارقه بالكلية , والإنسان في نومه يحس بتصرفات روحه , تصرفات تؤثر في بدنه , فهذا الصعود الذي توصف به الروح لا يماثل صعود المشهودات , فإنها إذا صعدت إلى مكان فارقت الأول بالكلية , وحركتها إلى العلو حركة انتقال من مكان إلى مكان , وحركة الروح بعروجها وسجودها ليس كذلك .

وقال أيضاً : ولهذا كان مذهب السلف والأئمة أنه مع نزوله إلى سماء الدنيا لا يزال فوق العرش , لا يكون تحت المخلوقات , ولا تكون المخلوقات محيطة به قط , بل هو العلي الأعلى , العلي في دنوه , القريب في علوه , ولهذا ذكر غير واحد إجماع السلف على أن الله ليس في جوف السماوات , ولكن طائفة من الناس قد يقولون : إنه ينزل ويكون العرش فوقه , ويقولون : إنه في جوف السماء , وإنه قد تحيط به المخلوقات , وتكون أكبر منه , وهؤلاء ضلال جهال مخالفون لصريح المعقول وصحيح المنقول .

وكل إشكال يرد في باب الصفات , وخاصة في صفة النزول يقال فيه : أخبرنا عن ذات الله نخبك عن سؤالك .
وأحاديث النزول من أغيض الأحاديث والأخبار على الجهمية والمعتلة عموماً , كما ذكر ذلك الدارمي , ولذا أفرده بعض الأئمة بمصنف خاص , كما صنع الدارقطني , والصابوني , وابن تيمية , والذهبي .

وقد أجمعت طوائف المعطلة من : الجهمية , والمعتزلة , والأشعرية , وغيرهم على إنكار هذه الصفة , وحرفوا النصوص الواردة في ذلك , وقالوا : هناك مجاز حذف , والمراد : ينزل ملكه , أو رحمته , أو أمره , أو عذابه .

والرد عليهم من وجوه :

١ . الأصل عدم الحذف .

٢ . أنه قال في الحديث (من يدعوني فاستجب له) فهل ملكه , أو رحمته , أو أمره يقول : من يدعوني...؟! .

٣ . أنه حدد وقت النزول , ولو كان أمره , أو رحمته لم يحدد لذلك وقتاً , فإنهما يكونان في كل وقت .

٤ . أنه حدد مكان النزول , وهو السماء الدنيا , فهل يقف أمر الله , أو رحمته , أو عذابه عند السماء الدنيا؟! .

٥ . أن هذا التحريف يعود على مذهبهم بالإبطال , فغالب من ينفي النزول ينفي العلو , فإذا قدر الأحاديث بنزول الرحمة , أو

الأمر , أو الملك , يقال له : تنزل من عند من ؟ فربك ليس في الأعلى .^(١)

(١) قال ابن تيمية : وأما قول النايفي : إنما ينزل أمره , ورحمته , فهذا غلط لوجوه , وقد تقدم التنبيه على ذلك على تقدير كون النفاة من المثبتة للعلو , وأما إذا كان من النفاة للعلو والنزول جميعاً , فيجانب أيضاً بوجوه :

أحدها : أن الأمر , والرحمة إما أن يراد بها أعيان قائمة بنفسها , كالملائكة , وإما أن يراد بها صفات وأعراض .

فإن أريد الأول , فالملائكة تنزل إلى الأرض في كل وقت , وهذا خص النزول بجوف الليل , وجعل منتهاه سماء الدنيا , والملائكة لا يختص نزولهم لا بهذا الزمان , ولا بهذا المكان .

وإن أريد صفات وأعراض مثل ما يحصل في قلوب العابدين في وقت السحر من الرقة , والتضرع , وحلاوة العبادة , ونحو ذلك , فهذا حاصل في الأرض ليس منتهاه السماء الدنيا .

الثاني : أن في الحديث الصحيح (أنه ينزل إلى السماء الدنيا ثم يقول : لا أسأل عن عبادي غيري) ومعلوم أن هذا كلام الله الذي لا يقوله غيره .

الثالث : أنه قال (ينزل إلى السماء الدنيا فيقول : من ذا الذي يدعوني فاستجب له , من ذا الذي يسألني فأعطيه , من ذا الذي يستغفري فأغفر له , حتى يطلع الفجر) ومعلوم أنه لا

يجيب الدعاء , ويغفر الذنوب , ويعطي كل سائل سؤاله إلا الله , وأمره , ورحمته لا تفعل شيئاً من ذلك .

الرابع : نزول أمره , ورحمته لا تكون إلا منه , وحينئذ فهذا يقتضي أن يكون هو فوق العالم , بنفس تأويله يطل مذهبه , ولهذا قال بعض النفاة لبعض المثبتين : ينزل أمره , ورحمته . فقال

له المثبت : فممن ينزل ؟ ما عندك فوق شيء , فلا ينزل منه لا أمر , ولا رحمة , ولا غير ذلك . فبهت النايفي , وكان كبيراً فيهم .

الخامس : أنه قد روي في عدة أحاديث (ثم يعرج) وفي لفظ (ثم يصعد) .

السادس : أنه إذا قدر أن النازل بعض الملائكة , وأنه ينادي عن الله , كما حُرف بعضهم لفظ الحديث فرواه (ينزل) من الفعل الرباعي المتعدي , أنه يأمر منادياً ينادي , لكان الواجب أن

يقول : من يدعو الله فيستجب له , من يسأله فيعطيه , من يستغفره فيغفر له .

وَقُلْ إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ وَزِيرَاهُ قَدَمًا^(١) ثُمَّ عَثْمَانُ الْارْجَحُ
 وَرَابِعُهُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ بَعْدَهُمْ عَلِيٌّ حَلِيفُ الْخَيْرِ بِالْخَيْرِ مُنْجِحُ^(٢)
 وَأَتَمُّ لِلرَّهْطِ^(٣) لَا رَبِّبَ فِيهِمْ عَلَى نُجْبِ الْفِرْدَوْسِ بِالنُّورِ تَسْرُحُ^(٤)
 سَعِيدٌ وَسَعْدٌ وَابْنُ عَوْفٍ وَطَلْحَةُ وَعَامِرُ فَهْرٍ وَالزُّبَيْرُ الْمَمْدَحُ
 وَقُلْ خَيْرُ قَوْلٍ فِي الصَّحَابَةِ كُلِّهِمْ وَلَا تَكْ طَعَانًا تَعِيبٌ وَتَجْرُحُ
 فَقَدْ نَطَقَ الْوَحْيُ الْمُبِينُ بِفَضْلِهِمْ وَفِي الْفَتْحِ أَيُّ لِلصَّحَابَةِ تَمْدَحُ^(٥)

يتكلم الناظم في هذه الأبيات عن مسائل متعلقة بصحابة النبي ﷺ .

فيقول رحمه الله تعالى : وقل أيضاً - أيها المسلم السني - بلسانك , معتقداً بقلبك : خير الناس بعد الأنبياء : صحابة النبي ﷺ وخير الصحابة على الإطلاق وزيرا النبي ﷺ وهما : أبو بكر الصديق , وعمر الفاروق , ثم يليهما في الفضل والخيرية عثمان بن عفان , ثم يليهم علي بن أبي طالب , ووصفه بأنه (حليف الخير) أي : الملازم له (منجح) أي : المحصل له . وهؤلاء الأربعة لا شك أنهم سيسرحون على النجائب وهي الرواحل الجياد من الخيل والإبل في جنة الفردوس مع بقية العشرة المبشرين بالجنة , وهم : سعيد بن زيد , وسعد بن أبي وقاص , وعبدالرحمن بن عوف , وطلحة بن عبيد الله , وأبو عبيدة عامر بن الجراح , والزبير بن العوام , وكلهم من المهاجرين من قبيلة قريش , وقد جمعهم النبي ﷺ في حديث واحد مبشراً لهم بالجنة , كما عند أحمد , وأبي داود , والترمذي , وصححه الألباني .

وعليك أيها السني أن تثني وتحب سائر الصحابة , ولا تطعن في أي واحد منهم , لأن الوحي نطق بفضلهم , كما في آيات عدة , أكثرها في سورة الفتح .

قال تعالى في سورة الفتح (هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليماً حكيماً) وقال تعالى فيها (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً) وقال تعالى فيها (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً * ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً) وقال تعالى فيها (إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليماً) وختم السورة بهذا الثناء العطر (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع

(١) قَدَمًا : أي : من أول الدعوة . وقيل : قَدَمًا .

(٢) وفي نسخة : بالخير ممنج . وفي أخرى : منج . وهذا دليل على كرمه وجوده .

(٣) تعددت النسخ في شكل هذه اللفظة , ففي نسخة (للرهط) وفي أخرى (والرهط) وفي أخرى (والرهط) ولعل الأقرب والله أعلم لفظة (والرهط) من باب عطف الستة على الأربعة الخلفاء .

والرهط : من الثلاثة إلى العشرة , والمراد بهم هنا : القوم أو الجماعة .

(٤) وفي نسخة : في الخلد تسرح .

(٥) وفي نسخة : في الصحابة تمدح .

أخرج شطاه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا .

ويذكر أهل العلم في كتب العقائد مسائل عدة متعلقة بالصحابة ، ولكن الناظم اقتصر على ثلاث مسائل ، وهي : ترتيب الخلفاء الأربعة في الفضل ، وذكر العشرة المبشرين بالجنة ، وعدم الطعن في سائر الصحابة ، وستكلم عند شرح الواسطية إن شاء الله عن المسائل المتعلقة بالصحابة بشكل أوسع .

أما ما ذكره المصنف من ترجيح تقديم عثمان على علي في الخيرية والفضل فهو ما استقر عليه مذهب الأئمة رحمهم الله تعالى . ويناسب أن نذكر هنا الفرق بين مسألة الخلافة والفضل بين الخلفاء الأربعة .

فمن أصول أهل السنة والجماعة المجمع عليها : تقديم أبي بكر ثم عمر ، في الخلافة ، والفضل . قال ابن تيمية : وقد روي عن علي من نحو ثمانين وجهاً أو أكثر أنه قال على منبر الكوفة : خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ، وعمر .

وقال في منهاج السنة : روى الترمذي عنه أنه سمع ذلك من النبي ﷺ ولا ريب أن علياً لا يقطع بذلك إلا عن علم ، وروي عنه أنه قال : لا أوتى بمن يفضلني على أبي بكر ، وعمر إلا جلده جلد المفترى .

وفي البخاري عن ابن عمر : كنا في زمن النبي ﷺ لا نعدل بأبي بكر أحداً ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم نترك أصحاب النبي ﷺ لا نفاضل بينهم . وفي لفظ : يبلغ ذلك النبي ﷺ ولا ينكره .

قال ابن تيمية : النقل الثابت عن جميع علماء أهل البيت من بني هاشم من التابعين ، وتابعيهم من ولد الحسين بن علي ، وولد الحسن ، وغيرهما أنهم كانوا يتولون أبا بكر ، وعمر ، وكانوا يفضلونهما على علي ، والنقول عنهم ثابتة متواترة . ومسألة تقديم أبي بكر ثم عمر في الخلافة ، والفضل مجمع عليها بين العلماء .

أما مسألة عثمان وعلي فلها جهتان :

١. **الخلافة :** وهذه لا خلاف بين أهل السنة في تقديم عثمان على علي في الخلافة ، لتقديم أهل الشورى الستة له ، واتفاق الأمة عليه بعدُ .

قال الإمام أحمد : ما كان في القوم أوكد بيعة من عثمان ، كانت بإجماعهم . وقال أيضاً : لم يجتمعوا على بيعة أحد ما اجتمعوا على بيعة عثمان .

قال الهراس : فمن زعم أن خلافة عثمان كانت باطلة ، وأن علياً كان أحق بالخلافة منه ، فهو مبتدع ضال يغلب عليه التشيع ، مع ما في قوله من إزراء بالمهاجرين والأنصار أ.هـ

٢. **التفضيل :** نقل بعضهم الإجماع على تفضيل عثمان على علي ، والصواب أنه وقع خلاف بين أهل السنة في ذلك ، وأقوال أهل السنة فيها على عدة أقوال :

١. تقديم عثمان على علي : وهذا قول جمهورهم^(١) .

والدليل أن الصحابة قدموا عثمان في الخلافة فلا يقدمون إلا من يرون أنه أفضل .

(١) وهؤلاء منهم من قدم عثمان ، فقالوا : الأفضل : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، وسكتوا ، ومنهم من قال : الأفضل : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي .

قال الإمام أحمد : علي رابعهم في الخلافة والتفضيل .

٢ . تقديم علي على عثمان : وروي هذا عن أبي حنيفة , وسفيان الثوري .

٣ . التوقف : لتعارض الأدلة في حق كل منهما^(١) . وروي هذا عن الإمام مالك .

ولذلك تعتبر هذه المسألة من المسائل التي لا يضل فيها المخالف , لوقوع الخلاف بين السلف , وإن كان الأكثر على تقديم عثمان .

قال الخلال : أخبرنا محمد بن أبي هارون , قال : حدثنا إسحاق , أن أبا عبد الله سئل عن الرجل لا يفضل عثمان على علي ؟ قال : ينبغي أن يفضل عثمان على علي , لم يكن بين أصحاب رسول الله اختلاف أن عثمان أفضل من علي رحمهما الله , ثم قال : نقول : أبو بكر , وعمر , وعثمان , ثم نسكت هذا في التفضيل , وفي الخلافة : أبو بكر , وعمر , وعثمان , وعلي , وهذا في الخلفاء على هذا الطريق , وعلى ذلك كان أصحاب النبي ﷺ .

وقال أيضاً : أخبرني محمد بن أحمد بن منصور , قال : حدثنا جعفر بن محمد بن نوح , قال : سمعت محمد بن عيسى يقول : لئن قلت : إن علياً أفضل من عثمان , لقد قلت : إن القوم خانوا .

وفي أصول السنة للإمام أحمد : أبو بكر الصديق , ثم عمر بن الخطاب , ثم عثمان بن عفان , نقدم هؤلاء الثلاثة كما قدمهم أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا في ذلك .

وقال ابن تيمية : فلهذا قال أيوب , وأحمد بن حنبل , والدارقطني : من قدم علياً على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار , فإنه لو لم يكن هو أحق بالتقديم وقد قدموه كانوا جاهلين بفضله , وإما ظالمين بتقديم المفضول من غير ترجيح ديني , ومن نسبهم إلى الجهل والظلم فقد أزرى بهم .

وقال : وأما عثمان وعلي , فهذه دون تلك , فإن هذه كان قد حصل فيها نزاع , فإن سفيان الثوري , وطائفة من أهل الكوفة رجحوا علياً على عثمان , ثم رجح عن ذلك سفيان وغيره , وبعض أهل المدينة توقف في عثمان وعلي , وهي إحدى الروايتين عن مالك , لكن الرواية الأخرى عنه تقديم عثمان على علي , كما هو مذهب سائر الأئمة , كالشافعي , وأبي حنيفة وأصحابه , وأحمد بن حنبل وأصحابه , وغير هؤلاء من أئمة الإسلام , حتى إن هؤلاء تنازعوا فيمن يقدم علياً على عثمان هل يعد من أهل البدعة , على قولين هما روايتان عن أحمد .

وقال : لكن استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان على علي .

وينبه أن ابن تيمية هنا نقل الإجماع على تقديم عثمان على علي في الخلافة , وكذا جاء عن الإمام أحمد , وهذا والله أعلم بعد أن استقر أمر الخلافة لعثمان بناء على اختيار الأكثر , وأما أثناء الشورى فمن المعلوم أن بعض الصحابة اختار علياً للخلافة , وعليه فأمر الخلافة بعد أن استقر الأمر لعثمان يعتبر من الأمور التي يضل فيها المخالف .

(١) قال الإمام أحمد : ما جاء لأحد من الفضائل ما جاء لعلي .

وأما ما ذكره الناظم من وجوب حفظ اللسان في حق أصحاب النبي ﷺ وعدم سبهم والطعن فيهم ، فإن هذا الأمر مما أجمع عليه أهل السنة والجماعة ، فإنهم يحبون جميع الصحابة ، ويتولونهم ، ويترضون على جميعهم ، خلافاً للروافض الذين يبغضون أكثر الصحابة ، ويسبونهم ، ويكفرونهم ، وخلافاً للنواصب الذين يبغضون آل بيت النبي ﷺ ويسبونهم .

وسب الصحابة له أحكام :

١ . أن يسبهم لدينهم ، وعدالتهم ، كأن يرميهم بالكفر أو الفسق .

وهذا إن كان لجميع الصحابة فهو كفر بالاتفاق ، قال ابن تيمية ، وإن كان لصحابي تواترت الأخبار بفضله فهو كفر أيضاً على الصحيح ، وإن كان ذلك الصحابي لم تتواتر الأخبار بفضله فهو محل خلاف .

٢ . ألا يتعلق السب بدينهم ، وعدالتهم ، كما لو رماههم بالبخل ، أو الجبن ونحو ذلك ، وهذا صاحبه لا يكفر ، لكنه يعزر . قال ابن تيمية : وأما من سبهم سباً لا يقدر في عدالتهم ، ولا في دينهم ، مثل وصف بعضهم بالبخل ، أو الجبن ، أو قلة العلم ، أو عدم الزهد ، ونحو ذلك ، فهذا هو الذي يستحق التأديب والتعزير ، ولا نحكم بكفره بمجرد ذلك ، وعلى هذا يحمل كلام من لم يكفرهم من أهل العلم .

وقال شيخنا ابن عثيمين : فلا يحل لأحد أن يسب الصحابة على العموم ، ولا أن يسب واحداً منهم على الخصوص ، فإن سبهم على العموم كان كافراً ، بل لا شك في كفر من شك في كفره ، وأما إن سبهم على سبيل الخصوص فينظر الباعث لذلك ، فقد يسبهم من أجل أشياء خلقية ، أو خلقية ، أو دينية ، ولكل واحد من ذلك حكمه .

وذكر شيخنا أن سب الصحابة له أحكام :

الأول : أن يسبهم بما يقتضي كفر أكثرهم ، أو أن عامتهم فسقوا ، فهذا كفر ، لأنه تكذيب لله ورسوله بالثناء عليهم ، والترضي عنهم ، بل من شك في كفر مثل هذا ، فإن كفره متعين ، لأن مضمون هذه المقالة أن نقلة الكتاب والسنة كفار أو فساق .

الثاني : أن يسبهم باللعن والتقييح ، ففي كفره قولان لأهل العلم ، وعلى القول بأنه لا يكفر يجب أن يجلد ، ويحبس حتى يموت ، أو يرجع عما قال .

الثالث : أن يسبهم بما لا يقدر في دينهم ، كالجبن ، والبخل ، فلا يكفر ، ولكن يعزر بما يردعه عن ذلك ، ذكر معنى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب (الصارم المسلول) أ.هـ .

وقال الهيثمي : أجمع القائلون بعدم تكفير من سب الصحابة على أنهم فساق .

وَبِالْقَدْرِ الْمُقَدَّرِ أَيَقِنُ فَإِنَّهُ دِعَامَةُ عَقْدِ الدِّينِ وَالدِّينِ أَفِيحُ

يتكلم الناظم في هذا البيت عن وجوب الإيمان بالقدر .

فيقول رحمه الله تعالى : عليك - أيها المسلم السني - بالإيمان بقدر الله تعالى إيماناً لا شك فيه ولا تردد ، فإنه لا يصح إيمان عبدٍ حتى يؤمن بالقدر ، لأن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان الستة التي لا يصح إيمان عبدٍ إلا بالإيمان بها جميعاً .

وذكر رحمه الله أن الإيمان بالقدر دعامة وركن لا يقوم الدين إلا به ، وشعائر الدين كثيرة ومتنوعة ، وهذا مراده بقوله : والدين أفيحُ ، أي : واسع متعدد ومتنوع الشعائر^(١) .

وعقيدة سلف الأمة في هذا الباب الخطير هي : الإيمان بأن الله على كل شيء قدير ، وأنه سبحانه عالم بالأشياء قبل أن يخلقها ، وأنه كتب ذلك في اللوح المحفوظ ، وأنه لا يقع شيء في الكون من خير أو شر إلا بإرادة الله ، وتقديره ، وخلقته .

جاء عند مسلم عن طاووس : أدركت أناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : كل شيء بقدر .

قال : وسمعت عبد الله بن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ : كل شيء بقدر ، حتى العجز والكيس ، أو الكيس والعجز .

وأخرج البخاري في تاريخه عن ابن عباس قال : كل شيء بقضاء وقدر حتى وضعك يدك على خدك .

وقال أيوب السخيتاني : أدركت الناس وما كلامهم إلا أن الله قضى وقدر .

ومن عقيدة سلف الأمة في هذا الباب أيضاً : عدم الخوض في القدر ، وعدم التعرّف في مسأله ، وأنه سر الله في خلقه ، تحار عقول البشر القاصرة عن إدراك حكمة الله تعالى في أفعاله وخلقته .

قال الطحاوي : وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه ، لم يطلع على ذلك ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، والتعمق والنظر في ذلك

ذريعة الخذلان ، وسلم الحرمان ، ودرجة الطغيان ، فالحذر كل الحذر من ذلك : نظراً ، وفكراً ، ووسوسة ، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه ، ونهاهم عن مرامه ، كما قال تعالى في كتابه (لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون) فمن سأل : لم فعل ؟ فقد

رد حكم الكتاب ، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين أ.هـ

وقد ذكر علماء السنة أن للقدر درجتان :

الدرجة الأولى : قبل وقوع المقدور ، وتشمل (العلم ، والكتابة) .

١. العلم : فالله عز وجل قد أحاط بكل شيء علماً ، أزلاً وأبداً ، وأنه لا تخفى عليه خافية ، وعلم كل ما سيفعله العباد ، وكل

ما يحصل في الكون من دقيق وجليل ، فكل ما يوجد من أعيان ، وأوصاف ، وأفعال ، وأحداث ، فهو مطابق لعلم الله السابق .

وأدلة ذلك في الكتاب والسنة مستفيضة ، قال تعالى (إن الله بكل شيء عليم) وقال تعالى (وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً) .

٢. الكتابة : وهي أن الله تعالى كتب ذلك كله في اللوح المحفوظ ، فما علم الله كونه ووقوعه من مقادير الخلائق ، وأصناف

الموجودات ، وما يتبع ذلك من الأحوال ، والأوصاف ، والأفعال ، ودقيق الأمور وجليلها ، قد أمر الله القلم بكتابتها ، كما قال

تعالى (وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين) وقال ﷺ : وكتب في الذكر كل شيء . رواه البخاري .

(١) في لسان العرب : الفيحُ : السعة والانتشار .

الدرجة الثانية المقارنة للمقدور ، وتشمل (المشيئة ، والخلق) .

٣. المشيئة : الإيمان بعموم مشيئة الله ، وأن ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا يقع في ملكه ما لا يريد^(١) ، وأن أفعال العباد من الطاعات والمعاصي واقعة بتلك المشيئة العامة التي لا يخرج عنها كائن ، كما لا يخرج عن علمه شيء ، سواء كان مما يحبه الله ويرضاه أم لا ، فالإيمان والكفر ، والخير والشر ، والطاعة والمعصية كل ذلك واقع بإرادة الله .

فإن كان مما يحبه الله ويرضاه فهو واقع بإرادته الكونية والشرعية ، وإن كان مما لا يحبه ولا يرضاه فهو واقع بإرادته الكونية^(٢) . وأدلة ذلك كثيرة ، منها قوله تعالى (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) وقوله تعالى (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً) وقوله تعالى (ولو شاء الله ما اقتتلوا) .

٤. الخلق : الإيمان بأن جميع ما في الكون مخلوق لله ، كما قال تعالى (الله خالق كل شيء) وقال تعالى (والله خلقكم وما تعملون) فالله خالق وما سواه - من الذوات ، والصفات ، والأفعال - مخلوق .

ومن ذلك : أفعال العباد ، فهي مخلوقة لله ، كما قال تعالى (والله خلقكم وما تعملون) وهي مع ذلك تقع باختيارهم ، لا يجبرون عليها ، بل هي أفعالهم على الحقيقة لا على المجاز .

وقد خالف أهل البدع في هذه الأمور ، أما العلم ، والكتابة فقد خالف في إثباتها القدرية الأولى الذين ظهروا في آخر عصر الصحابة ، وأنكروا أن يكون الله يعلم أعمال العباد قبل وقوعها - ويلزم من ذلك إنكار الكتابة - وقد أنكر عليهم السلف وكفروهم ، ولذا لم ترج فكرتهم .

وأما المشيئة ، والخلق فقد خالف فيها المعتزلة ، وزعموا أن الله تعالى لم يشأ الكفر والمعاصي والشرور ، وأن هذه الأمور إنما تقع بإرادة العبد لا بإرادة الله ، وأثبتوا للعبد مشيئة تخالف مشيئة الله .

وكذلك زعموا أن الله تعالى لم يخلق أفعال العباد ، وأن العبد هو الذي خلق فعل نفسه ، وهو الذي أراده ، ولا دخل لإرادة الله في ذلك .

والإشكال الموجب لهذه الشبهة عندهم : كيف يشأ الله الكفر والمعاصي والفجور ، وكيف يخلق ذلك!

وقابل هؤلاء : الجبرية ، فقالوا : العبد مسلوب الإرادة والقدرة ، فكل ما يقع منه فهو مجبور عليه ، كالريشة في مهب الريح . وسندكر الرد على هذه الطوائف ، مع ذكر مسائل القدر عند شرح الواسطية إن شاء الله .

(١) لا يكون في ملكه ما لا يريد كوناً ، فكل ما يقع فقد أراده كوناً وإلا لم يقع ، وقد يكون في ملكه ما لا يريد شرعاً ، كسائر المعاصي .

(٢) وفي كتاب (طبقات الشافعية) للسبكي مناظرة بين الأستاذ أبي إسحاق الإسفرائيني ، والقاضي عبد الجبار المعتزلي .

قال عبد الجبار في ابتداء جلوسه للمناظرة : سبحان من تنزه عن الفحشاء .

فقال الأستاذ مجيباً : سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء .

فقال عبد الجبار : أفيشاء ربنا أن يُعصى ؟

فقال الأستاذ : أيعصى ربنا قهراً ؟

فقال عبد الجبار : أفرايت إن معني الهدى ، وقضى علي بالردى أحسن إلي أم أساء .

فقال الأستاذ : إن كان منعك ما هو لك فقد أساء ، وإن منعك ما هو له فهو يختص برحمته من يشاء .

فانقطع عبد الجبار .

وَلَا تُنْكِرْنَ جَهْلًا نَكِيرًا وَمُنْكَرًا وَلَا الْحَوْضَ وَالْمِيزَانَ إِنَّكَ تُنْصَحُ

يتكلم الناظم في هذا البيت عن وجوب الإيمان بمنكر ونكير ، ووجوب الإيمان بحوض النبي ﷺ في عرصات القيامة ، ووجوب الإيمان بالميزان الذي توزن به أعمال العباد .

فيقول رحمه الله تعالى : عليك أيها المسلم السني بالإيمان بما ذكر النبي ﷺ من سؤال الملكين في القبر ، والإيمان بحوض النبي ﷺ في عرصات يوم القيامة ، والإيمان بالموازين التي توزن بها أعمال العباد .

وقد أجمع أهل السنة والجماعة على أن الناس تفتن في قبورها ، كما ثبت ذلك في أحاديث كثيرة ، منها قوله ﷺ : وأوحى إلي أنكم تفتنون في القبور قريباً من فتنة الدجال . متفق عليه .

والمقصود بفتنة القبر : سؤال الملكين للميت (من ربك؟ من نبيك؟ ما دينك؟) والنعيم أو العذاب إنما هو نتيجة هذا الامتحان والسؤال ، وتسمى هذه المرحلة بالبرزخ .

وقد جاء عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : إذا فُبر الميت ، أو قال أحدكم ، أتاه ملكان أسودان أزرقان ، يقال لأحدهما المنكر ، والآخر النكير ، فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : ما كان يقول هو : عبد الله ورسوله ، أشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله . فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول هذا . ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ، ثم ينور له فيه ، ثم يقال له : نم . فيقول : أرجع إلى أهلي فأخبرهم . فيقولان : نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه . حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك .

وإن كان منافقاً قال : سمعت الناس يقولون فقلت مثله ، لا أدري . فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول ذلك .

فيقال للأرض : التثمي عليه . فتلتئم عليه ، فتختلف فيها أضلاعه ، فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك . رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن غريب . وقال الألباني : وإسناده حسن .

وقيل : سمياً منكر ونكير ، لأن الميت لا يعرفهما ، ولم يرَ صورة مثل صورتها ، كما قال إبراهيم عليه السلام (سلام قوم منكرون) . وذكر بعضهم أن اللذين يسألان المؤمن اسمهما البشير والمبشر ، وقد وردت أحاديث بذلك ولكنها لا تثبت .

وسؤال الملكين في القبر ثابت في أحاديث كثيرة ، أما تسميتهما بمنكر ونكير فجاء في بعض الأحاديث ، كما ذكر آنفاً ، لكن بعض أهل العلم يصححها والبعض يضعفها .

كما أجمع أهل السنة والجماعة على ثبوت حوض النبي ﷺ في عرصات القيامة ، قال ابن القيم : قد روى أحاديث الحوض أربعون من الصحابة ، وكثير منها أو أكثرها في الصحيح .

وذكر ابن حجر أن أحاديثه بلغت مبلغ التواتر ، رواها من الصحابة بضع وثلاثون ، منهم في الصحيحين ما ينيف على العشرين ، وفي غيرها البقية .

وقال أيضاً : بلغني أن بعض المتأخرين وصلها إلى رواية ثمانين صحابياً .

وقال أيضاً : أنكره الخوارج وبعض المعتزلة .

وقال الهراس : فمن أنكره فأخلق به أن يُحال بينه وبين وروده يوم العطش الأكبر .

وجاء في صفات هذا الحوض أن مائه أشد بياضاً من اللبن ، وفي رواية أشد بياضاً من الورق - الفضة - ، وطعمه أحلى من العسل ، وريحه أطيب من المسك ، من شرب منه شربة لم يظماً بعدها أبداً ، يصب فيه ميزابان من الكوثر ، وهو النهر العظيم الذي أعطيه نبينا ﷺ في الجنة - كما عند مسلم - له آنية معلقة على جوانبه بعدد نجوم السماء ، طوله شهر - بسير الإبل - وعرضه شهر .

وكل هذه الصفات جاءت في الأحاديث الصحيحة الثابتة .

قال عبد الله بن عمرو قال النبي ﷺ : حوضي مسيرة شهر ، وزواياه سواء ، وماءه أبيض من الورق ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه كنجوم السماء ، فمن شرب منه فلا يظماً بعده أبداً . رواه مسلم .
وروى مسلم في صحيحه عن ثوبان أن نبي الله ﷺ سئل عن شرايه فقال : أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، يغت فيه ميزابان يمدانه من الجنة : أحدهما من ذهب ، والآخر من ورق .

وفي صحيح البخاري عن ابن مسعود أن النبي ﷺ : أنا فرطكم على الحوض ، ليرفعن إلي رجال منكم ، حتى إذا أهويت لأناوهم اختلجوا دوني ، فأقول : أي رب أصحابي . يقول : لا تدري ما أحدثوا بعدك .

وفي هذا الحديث أن النبي ﷺ يسقي بيده الناس خلافاً لمن أنكر ذلك ، ولا يلزم أن يكون ذلك لكل أحد ، والله أعلم .

كما أجمع أهل السنة والجماعة على ثبوت الموازين للنصوص الكثيرة في الوحيين ، قال تعالى (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) وقال تعالى (فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم) وقال ﷺ : كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم . متفق عليه .
فبعد أن يشفع النبي ﷺ للناس بأن يحاسبوا ، وتقبل شفاعته ، تنصب لذلك الموازين للحساب ، ويعرض جميع الناس على الله كما قال تعالى (وعرضوا على ربك صفاً) .

وقد أنكرت الجهمية والمعتزلة ذلك ، وقالوا : المراد بالميزان في النصوص : العدل .

قال ابن حجر : وقال ابن فورك : أنكرت المعتزلة الميزان بناء منهم على أن الأعراس يستحيل وزنها ، إذ لا تقوم بأنفسها أهـ . وقالوا أيضاً : الله يعلم كل شيء وقد أحصاه ، فلا يحتاج لميزان .

قال الشيخ مرعي : والحكمة من الوزن مع أن الله عالم بكل شيء : إظهار العدل ، وبيان الفضل ، حيث يزن مثاقيل الدر من خير وشر .

وقال شارح الطحاوية : وبالحقيقة من ينفي وضع الموازين القسط ليوم القيامة - كما أخبر الشارع - لحفاء الحكمة عليه ، ويقدم في النصوص بقوله : لا يحتاج إلى الميزان إلا البقال والفوال .

وَقُلْ يُخْرِجُ اللَّهُ الْعَظِيمُ بِفَضْلِهِ مِنْ النَّارِ أَجْسَاداً مِنَ الْفَحْمِ تُطْرَحُ
عَلَى النَّهْرِ فِي الْفِرْدَوْسِ تَحِيًّا بِمَائِهِ كَحَبِّ (١) حَمِيلِ السَّيْلِ إِذْ جَاءَ يَطْفَحُ

يتكلم الناظم في هذا البيت عن مسألة إخراج الله من النار أناساً من الموحدين بلا شفاعاة من خلقه .
فيقول رحمه الله تعالى : قل - أيها المسلم السني - : إن الله يخرج من النار بفضل أناساً من الموحدين قد احترقوا حتى صاروا فحماً ، فيطرحون في نهرٍ يقال له (ماء الحياة) فينبتون كما تنبت بذور الصحراء حين يحملها السيل ، ثم يدخلون الجنة .
ومصادق ما ذكره الناظم أحاديث ثابتة في الصحيحين وغيرهما ، منها حديث أبي سعيد الطويل ، وفيه : فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون ، فيقول الجبار : بقيت شفاعتي ، فيقبض قبضة من النار ، فيخرج أقواماً قد امتحشوا ، فليقون في نهر بأفواه الجنة يقال له (ماء الحياة) فينبتون في حافتيه كما تنبت الحبة في حميل السيل ، قد رأيتموها إلى جانب الصخرة ، إلى جانب الشجرة ، فما كان إلى الشمس منها كان أخضر ، وما كان منها إلى الظل كان أبيض ، فيخرجون كأنهم اللؤلؤ ، فيجعل في رقابهم الخواتيم ، فيدخلون الجنة ، فيقول أهل الجنة : هؤلاء عتقاء الرحمن ، أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ، ولا خير قدموه ، فيقال لهم : لكم ما رأيتم ومثله معه . متفق عليه ، واللفظ للبخاري .
وهذا الحديث وغيره فيه ردٌ على الخوارج والمعتزلة القائلين بأن من دخل النار لا يخرج منها ، كما أن من دخل الجنة لا يخرج منها .
وقول الناظم هنا (على النهر في الفردوس) فيه نظر ، لأن الوارد أنه نهر بأفواه الجنة ، وليس في الفردوس ، إلا إن حملنا كلام الناظم على التوسع في اللفظ ، بإطلاق الفردوس على الجنة .

(١) وفي نسخة : كحبة . وبها ينكسر البيت .
والحبة : هي بذور الصحراء التي يحملها السيل ، فتنبت في جنباته .

وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ لِلْخَلْقِ شَافِعٌ وَقُلْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ حَقٌّ مُوَضَّحٌ^(١)

يتكلم الناظم في هذا البيت عن مسألة ثبوت شفاعته النبي ﷺ ومسألة ثبوت عذاب القبر .
 فيقول رحمه الله تعالى : قل - أيها المسلم السني - : إن رسول الله ﷺ يشفع يوم القيامة في أهل الموقف للفصل في القضاء بين
 الخلائق وبدء الحساب ، وقل أيضاً : إن عذاب القبر ثابت بالنصوص الصحيحة الصريحة الواضحة .
 أما مسألة شفاعته النبي ﷺ في أهل الموقف فهي ثابتة ثبوتاً قطعياً لا مرية فيه ، ولا أظن أن هذا النوع من الشفاعه ينكره الخوارج
 والمعتزلة .

ومصداق هذا الأمر ما تواتر في السنة من أن أهل الموقف يأتون الأنبياء طلباً للشفاعة في فصل القضاء فيعتذر سائر الأنبياء عنها
 ، حتى يصلوا للنبي ﷺ فيقول : أنا لها ، أنا لها ، ويخر ساجداً لله ، فيقبل الله شفاعته ، ويأمر بنصب الموازين للفصل بين العباد في
 القضاء ، وهذا هو المقام المحمود .

جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : أتى رسول الله ﷺ بلحم ، فزُفِع إليه الذراع - وكانت تعجبه -
 فنهس منها نَحْسَةً ثم قال : أنا سيد الناس يوم القيامة ، وهل تدرون مم ذلك؟ يجمع الله الناس الأولين والآخرين في صعيد واحد ،
 يسمعون الداعي ، وينفذهم البصر ، وتدنو الشمس ، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس :
 ألا ترون ما قد بلغكم ، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض : عليكم بآدم ، فيأتون آدم عليه السلام
 فيقولون له : أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا
 ترى إلى ما نحن فيه ، ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده
 مثله ، وإنه نُهاني عن الشجرة فعصيته ، نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى نوح ، فيأتون نوحاً فيقولون : يا نوح
 ، إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وقد سماك الله عبداً شكوراً ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول : إن
 ربي عز وجل قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي ،
 نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى إبراهيم ، فيأتون إبراهيم فيقولون : يا إبراهيم ، أنت نبي الله وخليله من أهل
 الأرض ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول لهم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن
 يغضب بعده مثله ، وإني قد كنت كذبت ثلاث كذبات - فذكرهن أبو حيان في الحديث - نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا إلى
 غيري ، اذهبوا إلى موسى ، فيأتون موسى فيقولون : يا موسى ، أنت رسول الله ، فضلك الله برسالته وبكلامه على الناس ، اشفع
 لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإني
 قد قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها ، نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى عيسى ، فيأتون عيسى فيقولون : يا عيسى ،
 أنت رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وكلمت الناس في المهد صبياً ، اشفع لنا ، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول
 عيسى : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله قط ، ولن يغضب بعده مثله - ولم يذكر ذنباً - نفسي نفسي نفسي ،
 اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى محمد ﷺ فيأتون محمداً ﷺ فيقولون : يا محمد أنت رسول الله ، وخاتم الأنبياء ، وقد غفر الله لك

ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فأنتقل فآتي تحت العرش ، فأقع ساجداً لربي عز وجل ، ثم يفتح الله عليّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه عليّ أحد قبلي ، ثم يقال : يا محمد ارفع رأسك ، سل تعطه ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأقول : أمّتي يا رب ، أمّتي يا رب ، فيقال : يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ، ثم قال : والذي نفسي بيده ، إن ما بين المصرعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحمير ، أو : كما بين مكة وبصرى . متفق عليه ، واللفظ للبخاري .

وهناك أنواع أخرى من الشفاعات الخاصة بالنبي ﷺ والشفاعات التي يشاركه فيها غيره من الملائكة والآدميين ، يأتي الكلام على بعضها عند شرح الواسطية ، وسبق الكلام عن جميع الأنواع عند شرح كتاب التوحيد ، والذي يظهر أن الناظم قصد هنا الشفاعة الكبرى لقوله (للخلق شافع) على أنه يمكن أن يريد سائر الأنواع .

وأما مسألة ثبوت عذاب القبر فهي أيضاً مسألة ثابتة ثبوتاً قطعياً لا ريب فيه ، دلت عليها آيات من القرآن ، وأحاديث من السنة الصحيحة الصريحة ، ولا ينكر ذلك إلا ضالّ مبتدع .

ومما جاء في كتاب الله من الدلالة على ثبوت عذاب القبر قوله تعالى عن آل فرعون (النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) قال ابن كثير : وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور .

وقال القرطبي : الجمهور على أن هذا العرض يكون في البرزخ ، وهو حجة في تثبيت عذاب القبر .

وقال تعالى (سنعذبهم مرتين) قال ابن مسعود ، وأبو مالك ، وابن جريج ، والحسن البصري ، وسعيد ، وقتادة ، وابن إسحاق ما حاصله : إن المراد بذلك : عذاب الدنيا ، وعذاب القبر (ثم يردون إلى عذاب عظيم) هو عذاب النار . ومال ابن جرير إلى ترجيح هذا القول في الآية .

ومما جاء في السنة في ثبوت ذلك ما جاء في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : سألت رسول الله ﷺ عن عذاب القبر . قال : نعم عذاب القبر حق .

وعند مسلم أنه ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن : اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر .

وحديث ابن عباس في الصحيحين أنه ﷺ مرّ بقبرين فقال : إنهما ليعذبان ... والأحاديث في ذلك كثيرة .

وقد أنكر ذلك المعتزلة ، وليس لهم دليل إلا الاعتماد على العقل والتجربة المبنية على قياس الغيب على الشهادة .

وَلَا تُكْفِرُنَ أَهْلَ الصَّلَاةِ وَإِنْ عَصَوْا
فَكُلُّهُمْ يَعْصِي وَذُو الْعَرْشِ يَصْفَحُ
وَلَا تَعْتَقِدُ رَأْيَ الْخَوَارِجِ إِنَّهُ
مَقَالٌ لِمَنْ يَهْوَاهُ يُرْدِي وَيَنْفَضُ
وَلَا تَكُ مُرْجِيًّا لِعُوبًا بِدِينِهِ
أَلَا إِنَّمَا الْمُرْجِيُّ بِالذِّينِ يَمْرُحُ
وَقُلْ إِنَّمَا الْإِيمَانُ قَوْلٌ وَبَيَّةٌ
وَفِعْلٌ عَلَى قَوْلِ النَّبِيِّ مُصْرَحُ
وَيَنْقُصُ طَوْرًا بِالْمَعَاصِي وَتَارَةً
بِطَاعَتِهِ يَنْمِي (١) وَفِي الْوَزْنِ يَرْجَحُ

يتكلم الناظم في هذ الأبيات عن بعض مسائل الإيمان , ومنها : حكم فاعل الكبيرة , وحقيقة الإيمان وأنه قول وعمل واعتقاد , وأنه يزيد وينقص , ويحذر من منهجين متضادين : منهج الخوارج , ومنهج المرجئة .
فيقول رحمه الله تعالى : إياك أيها المسلم السني أن تسلك منهج الخوارج الذين يكفرون أهل الصلاة بوقوعهم في كبيرة من كبائر الذنوب , فإن الذنوب لا يسلم منها أحد , والله سبحانه يغفر جميع الذنوب إلا الكفر والشرك , كذلك أيها السني احذر أن تسلك سبيل المرجئة الذين يُخرجون الأعمال عن مسمى الإيمان , فإن نتيجة ذلك التساهل في غشيان المعاصي , والتكاسل عن القيام بالطاعات , والتهاون في أمر الدين , بل قل أيها السني : إن الإيمان لا بد فيه من اعتقاد جازم بالقلب , وقول صريح باللسان , وعمل خالص بالجوارح , وأنه يزيد بالطاعات , وينقص بالمعاصي والتقصير في الطاعات , والغفلة .
ومسائل الإيمان من أهم مسائل العقيدة , بل إن أول خلاف معتبر ظهر في الأمة هو في مسألة الإيمان , وتكفير الخوارج للمسلمين .

قال ابن تيمية : أول البدع ظهوراً في الإسلام , وأظهرها ذمماً في السنة والآثار : بدعة الحرورية المارقة أ.هـ.
وعقيدة أهل السنة في هذه المسألة أنهم لا يكفرون بمطلق المعاصي , بل يقولون : الإنسان إذا أسرف على نفسه بالمعاصي التي هي دون الكفر , فله نصيب من اسم الإسلام , ويقولون (هو مؤمن ناقص الإيمان , أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته) فلا يُعطى الاسم المطلق , ولا يسلب مطلق الاسم , وأما في الآخرة فمآله الجنة , ولا يوجبون عليه النار , إذ قد يدخل الجنة ابتداء برحمة الله , وقد يدخلها بعد خروجه من النار .

فأهل الكبائر تحت مشيئة الله إن شاء غفر لهم بفضله , وإن شاء عذبهم بعدله .
وهذا في أفرادهم , أما العموم فلا بد أن يدخل النار طائفة من الموحدين , ثم يخرجون منها بالشفاعة , وبرحمة أرحم الراحمين .
قال ابن تيمية : فأهل السنة والجماعة لا يوجبون العذاب في حق كل من أتى كبيرة , ولا يشهدون لمسلم بعينه بالنار لأجل كبيرة واحدة عملها , بل يجوز عندهم أن صاحب الكبيرة يدخله الله الجنة بلا عذاب , إما لحسنات تمحو كبيرته - منه أو من غيره - وإما لمصائب كفرتها عنه , وإما لدعاء مستجاب منه أو من غيره فيه , وإما لغير ذلك , والوعيدية من الخوارج والمعتزلة يوجبون العذاب في حق أهل الكبائر لشمول نصوص الوعيد لهم أ.هـ.

وهناك في باب الإيمان جهتان : الاسم , والحكم .

والمراد بالاسم هنا : اسم العبد في الدنيا : مسلم أو كافر .

والمراد بالحكم : ما يترتب على تلك الأسماء في الدنيا والآخرة .

والخلاف الدائر بين الفرق إنما هو في فاعل الكبيرة غير التائب منها .

أما باب الأسماء : فالوعيدية (الخوارج , والمعتزلة) اختلفوا في الاسم .

فالخوارج قالوا : فاعل الكبيرة كافر , يحل دمه وماله^(١) .

أما المعتزلة فأخرجوه من الإيمان ولم يدخلوه في الكفر , بل قالوا : هو في منزلة بين المنزلتين , لا يحل دمه وماله , لأنه ليس بكافر .

والوعيدية من المرجئة قالوا : مؤمن كامل الإيمان .

وتوسط أهل السنة فقالوا : لا نعطيه اسم الإيمان المطلق , ولا ننفي عنه مطلق الإيمان , بل هو مؤمن ناقص الإيمان .

وأما باب الأحكام : فاتفق الوعيدية من الخوارج والمعتزلة أنه مخلد في النار , وعندهم أنه لا يجتمع في الشخص ثواب وعقاب ,

وأما المرجئة فطوائف متعددة , وذهب غلاتهم إلى أنه لا يضر مع الإيمان معصية , كما أنه لا ينفع مع الكفر طاعة , ويلزم على

هذا القول أنه يدخل الجنة ابتداءً , ولا يعذب بمعاصيه .

وتوسط أهل السنة فقالوا : لا يخلد في النار أبداً , ولكن قد يعذب على معاصيه , وقد تشمله رحمة الله .

وأصل ضلال كلتا الطائفتين - سواء الوعيدية أو الوعيدية - في مسألة الإيمان , ما ذكره ابن تيمية بقوله : وأصل نزاع هذه الفرق

في الإيمان من الخوارج , والمرجئة , والمعتزلة , والجهمية , وغيرهم : أنهم جعلوا الإيمان شيئاً واحداً , إذا زال بعضه زال جميعه , وإذا

ثبت بعضه ثبت جميعه , فلم يقولوا بذهاب بعض وبقاء بعض , كما قال النبي ﷺ : يخرج من النار من كان في قلبه حبة خردل

من إيمان أ.هـ

وذكر في موضع آخر أن الإيمان والكفر لكل منهما خصال وشعب عديدة , فمن الإيمان شعب إذا زالت زال الإيمان كله ,

كالتوحيد , ومنها شعب إذا زالت لم يزل الإيمان كله , كالصدق في الحديث , والحياء .

وكذلك الكفر منه شعب إذا وقعت وقع الكفر الأكبر كالاستهزاء , والسب لله , ولدينه , ولرسوله , ومنه شعب إذا وقعت لم يقع

الكفر الأكبر المخرج من الملة , كسب المسلم , وقتاله , والنياحة , وغير ذلك , وإنما يكون مقترفها واقع في الكفر الأصغر , وهو

الكفر العملي , وهو لا يخرج من الملة .

(١) ومما يُرد به على الخوارج في هذه المسألة : قوله تعالى (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحو بينهما) فسماهم مؤمنين مع وجود الاقتتال الذي هو من أكبر الكبائر , وقال تعالى (

فمن عُفي له من أخيه شيء) فسمى القاتل أخاً لولي المقتول .

ويقال أيضاً : لو كان الزاني , وشارب الخمر , ونحوهم من أهل الكبائر كفاراً لكان حكمهم القتل كما في المرتدين , فلما حكم الله عليهم بالجلد دل أنهم ليسوا مرتدين .

وقد أجمع أهل السنة والجماعة على أن الإيمان قول وعمل واعتقاد ، والأدلة على ذلك كثيرة ، منها : قوله ﷺ : الإيمان بضع وسبعون ، أو بضع وستون شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان . متفق عليه ، واللفظ لمسلم .

ولو تخلف أحد هذه المحال الثلاث لغير عذر فلا إيمان .

فإن تخلف اعتقاد القلب ، مع وجود لفظ اللسان ، وعمل الجوارح ، فهو منافق .

وإن تخلف لفظ اللسان ، مع وجود اعتقاد القلب ، وعمل الجوارح ، فهو كاذب .

وإن تخلف عمل الجوارح ، مع ادعاء اعتقاد القلب ، ووجود لفظ اللسان فهو كاذب .

كذلك أجمع أهل السنة والجماعة على أن الإيمان يزيد وينقص ، يزيد بالطاعة ، وينقص بالمعصية والتفريط بالطاعات والغفلة . والأدلة على ذلك كثيرة جداً من الكتاب والسنة ، منها قوله تعالى (ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) وقوله تعالى (والذين اهتدوا زادهم هدى) وقوله تعالى (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً) وقول النبي ﷺ عن الله فيمن دخل النار من أهل التوحيد : أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان . متفق عليه ، واللفظ للبخاري .

وخالف في ذلك طوائف المرجئة وقالوا : الإيمان محله القلب فقط ، والكرامية جعلوا محله اللسان فقط ، كما أنهم ذهبوا إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، بل يوجد أو يرتفع ، ويأتي الرد عليهم عند شرح الواسطية بإذن الله .

وَدَعَّ عَنْكَ آرَاءَ الرِّجَالِ وَقَوْلَهُمْ فَقَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ أَزْكَى (١) وَأَشْرَحُ
وَلَا تَكُ مِنْ قَوْمٍ تَلَهُوْا بِدِينِهِمْ فَتَطْعَنَ فِي أَهْلِ الْحَدِيثِ وَتَقْدَحُ

يتكلم الناظم في هذين البيتين عن أهمية تلقي الدين من الوحيين ، وترك الأخذ بآراء الرجال الخالية عن الدليل الشرعي ، ويجذر من الطعن في أهل هذه الطريقة من علماء الحديث .

فيقول رحمه الله تعالى : اترك أيها المسلم السني الأخذ بآراء الرجال وأقوالهم إن خالفت سنة النبي ﷺ وعليك بالسنة فذلك أزكى لك وأشرح ، واحذر أن تكون من قوم (اتخذوا دينهم لهواً ولعباً) فتطعن في أهل الحديث وتقدهح فيهم .

يقول إمام أهل الشام في زمنه الإمام الأوزاعي رحمه الله : عليك بالأثر وإن رفضك الناس ، وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوه لك بالقول ، فإن الأمر ينجلي وأنت على طريق مستقيم .

والمقصود بالرأي ما كان خلاف الشرع أي كان ، فالأمر إما شرع وإما رأي متبع .

والسنة الثابتة أو الغالبة في كل عصر أن من عادى أهل الحديث أحب عدوهم .

يقول ابن القيم في نونيته :

يَا مُبْغِضًا أَهْلَ الْحَدِيثِ وَشَاتِمًا أَبْشِرْ بِعَقْدِ وَلَايَةِ الشَّيْطَانِ

وهذه النصيحة الخاتمة من الناظم هي نفس النصيحة التي ابتدأ بها منظومته ، حيث يذكر مرة أخرى بأهمية مصادر التلقي ، وأن العصمة في التلقي عن الوحيين ، وتعظيم أهل الحديث الذين أخذوا بهذا النهج ، خلافاً لأهل البدع الذين ركنوا إلى علم الكلام والفلسفة ، وتندروا بأهل الحديث ، وطعنوا فيهم .

إِذَا مَا اعْتَقَدْتَ الدَّهْرَ يَا صَاحَ هَذِهِ فَأَنْتَ عَلَى خَيْرٍ تَبَيَّنْتُ وَتُصْبِحُ^(١)

يحتتم الناظم منظومته بالقطع واليقين أن ما ذُكر في هذه المنظومة هو سبيل النجاة الوحيد ، وأن من اعتقد ما جاء فيها ولازم ذلك مدة حياته فقد فاز ونجى وحصل له الخير العميم .

قال أبوبكر بن أبي داود : هذا قولي ، وقول أبي ، وقول أحمد بن حنبل ، وقول من أدركنا من أهل العلم ، ومن لم تُدرك ممن بلغنا عنه ، فمن قال غير هذا فقد كذب .

تم هذا التعليق على هذه المنظومة الماتعة ، والله أعلم ، وصلّى اللهم على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .